صلة الشيخ
عبد الله بن حميد رحمه الله
بعلماء المسجد الحرام

الشيخ د. أسامة بن عبدالله خياط

شبكة الألوكة
www.alukah.net

صِلة سماحة الشَّيخ عبد الله بن حميد ﵀ بعلماء المسجد الحرام

بقلم:

د. أسامة بن عبد الله خياط

إمام وخطيب المسجد الحرام

المدرِّس في الحرم الشَّريف

مشاركة في الملتقى العلمي:

(مآثر سماحة الشيخ عبد الله بن حميد ﵀ وجهوده في الشؤون الدينيَّة بالمسجد الحرام)

الجلسة الثانية: (**حياة الشيخ عبد الله بن حميد الاجتماعية**)

اليوم: الأربعاء ٢٤/ ٦/ ١٤٤٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على سيِّد الأوَّلين والآخِرين، محمَّدٍ النبيِّ الأمين، وعلى آله الطَّيِّبين الطَّاهرين، وصحابته الغُرِّ الميامين، والتَّابعين ومن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعدُ؛ فإنَّه لعَمَلٌ حسنٌ مشكور، ومَنْشَطٌ عظيمٌ مَبْرُور، هذا الذي أقامتْه (رئاسةُ الشُّؤون الدِّينيَّة بالمسجد الحرام والمسجد النَّبويِّ) ألا وهو: **(ملتقى مآثر سماحة الشَّيخ عبد الله بن حميد ﷺ وجهوده في الشؤون الدينيَّة بالمسجد الحرام)**.

فإنَّ سِيَرَ أعلامِ العُلَماءِ أمثالِ سماحتِهِ ﷺ، ليسَتْ مُجرَّدَ تاريخٍ يُروَى، بل هي دروسٌ ونماذجُ تُحتذَى، يجِدُ فيها النَّاظِرُ مِنَ العِبَرِ والعِظاتِ والفوائدِ والتَّجارِبِ الحَكِيمةِ والخِبْراتِ الفذَّةِ النَّادرةِ: مناهجَ سَيْرٍ، وسُبُلَ سعادةٍ، وطُرُقَ نجاحٍ، ينتهِجُها لِيقطعَ أشواطَ الحياة، ويبلُغَ بها ما يرجو، ويأمن ممَّا يخافُ، ويرشُدَ سَعْيُه، وتطيبَ حياتُه.

وهذه مشاركةٌ لي بعنوان: (**صلةُ سماحةِ الشَّيخ عبد الله بن حميد ﷺبعلماء المسجد الحرام**)، وقد تأمَّلتُ هذا الموضوعَ، فأطلتُ التَّأمُّل، وفكَّرتُ فيه فأطلتُ التَّفكُّر، فخلَصْتُ من ذلك إلى: أنَّه يُمكِنُ القول إنَّ صِلَةَ سماحتِهِ ﷺ تعالى بعلماء المسجد الحرام (أئمةً وخطباءَ ومُدَرِّسينَ) **كانتْ قائمةً على ثلاثةِ أُسُسٍ**:

❑ **الأساسُ الأوَّل هو: الاحترامُ الكبيرُ، والإجلالُ والعِرفانُ بفضلِهِمْ؛ محفوفًا بعُمْق المحبَّة لهم، وعِظَم المودَّةِ وكمالِ السُّرورِ والاحتفاءِ بهم، وإكرامِهِمْ بجميعِ أنواعِ الإكرامِ الَّتي عُرِفَتْ عنْ سماحتِهِ ﷺ: مِنْ سرورٍ** بلقائهم، وبشاشةٍ وبِشْرٍ في استقبالهم، وطِيبِ القول معهم، وسلامةِ الصَّدر لهم؛ **ممَّا يجعلُ لقاءَهُم بسماحتِهِ مَغْنَمًا عظيمًا، وكَسْبًا رابحًا، ومَقصَدًا محبوبًا، يَحرِصُ عليه الجميعُ، ولا يُفرِّطون فيه، أو يتقاعسُونَ عنْه.**

❑ **الأساسُ الثَّاني (الذي قامَتْ عليه هذه الصِّلةُ) هو: كمالُ الحِرْصِ على بَذْلِ كلِّ جُهْدٍ في سبيلِ تَنْظيمِ شؤونِهِمْ، وترتيبِ أعمالِهِمْ، وتَنْسيقِ مُهِمَّاتِهِمْ، بوَضعِ كلِّ شيءٍ في موضعه؛ مُعتمِدًا في ذلك: خِطَّةً فَريدةً، ومَنْهَجًا مُتميِّزًا، وسبيلًا حكيمًا، بلغ فيه ﷺ أعظمَ مَبْلَغٍ من التَّوفيقِ، وذلك:** بالإشرافِ والتَّوجيهِ العامِّ، مع تركِ (التَّنسيق) في (التَّفصيلات)؛ ليتولَّوا همُ القيامَ بها فيما بينَهُمْ بعدَ (تحديد المُهِمَّات)، و(توزيعِ المسؤوليَّات)، بصورةٍ واضِحةٍ بيِّنةٍ، لا تدَعُ المَجالَ لوقوعِ إشكالٍ أو خلافٍ، وهو وإنْ كان قليلًا أو نادرَ

الحُدوث؛ فإنَّه إن وقع؛ يجِدُ مِنْ سماحتِهِ المُعالجةَ الحكيمةَ التي تضَعُ الأمر في نِصابه، وتُعيدُهُ إلى مَسارِهِ الصَّحيحِ، بما عُرِفَ عَنْ سماحته مِنْ صِفتَيْنِ بارِزَتَيْنِ من صفاته هما: الحِلْمُ، والأناةُ، وهما صِفتانِ يحبُّهما الله، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله لأشجِّ عبدِ القَيْسِ -لمَّا وفد عليه مع قومه-: «**إنَّ فيك خَصلتَيْنِ يحبُّهما اللهُ: الحلمَ والأناةَ**» [أخرجه الإمام مسلم في صحيحه].

❑ **الأساسُ الثَّالثُ هو: الدَّعمُ والمُساندةُ والتَّشجيعُ الَّذي كان يُقابِل به سماحتُه ﷺ كلَّ نشاطٍ يصدُرُ عن هؤلاء العلماءِ (أئمَّةً وخُطباءَ ومُدرِّسينَ) في مُختلِف ألوانِ النَّشاط العِلْميِّ، وخاصَّةً**: ما كان يصدُر عنهم من مؤلَّفاتٍ هادفةٍ هاديةٍ بإذن الله، كانوا يحرصون على إهدائها لسماحته ﷺ؛ سَيْرًا على السُّنَّة المعروفة الشَّائعة بين أهل العلم، المُتمثِّلة في صِلَة بعضهم بعضًا بهذا اللَّون من الصِّلات، الَّتي يرَوْنَ وجوبَها ولزومَها وضرورتَها؛ لأنَّ «**العِلْمَ رحِمٌ بين أهله**».

وقد كان والدي ﷺ تعالى من العاملين بهذا النَّهج، المُستمسِكين بهذه الصِّلة على الدَّوام، بما كان **يَحرِصُ على إهدائِه لسماحته مِنْ كُتُبٍ ورسائلَ ونحوها، وكان سماحة الشيخ ﷺ تعالى حريصًا كلَّ الحِرْص على الرَّدِّ على كلِّ ما يَصِلُ إليه؛ بخطابِ شُكْرٍ غير تقليديٍّ وغير روتينيٍّ!**

إذْ كان خطابُه مُتضمِّنًا بعد الشُّكرِ على إهداء ذلك المُصنَّف:

- الدُّعاءَ للمُهدِي بأنْ يصلَه اللهُ بحَبْل هداه.
- إظهارَ الاحتفاءِ بهذا الكتاب المُهدَى إليه، والسُّرور بصُدُورِه.
- الثَّناءَ علَيْه بما يرى سماحته أنَّه مُستَحِقٌّ له.

ولا رَيْبَ أنَّ لهذا الموقفِ الرَّائعِ والمَنْهَجِ العَظِيمِ أعظمَ الآثار في نَفْس المُهدِي، وأعمقَها وأبلغَها في تقويةِ العزائم، واستنهاضِ الهِمَم، وبَعْثِ النَّشاطِ لمزيدٍ من العَطاءِ؛ رغبةً في حُسْنِ الجزاءِ مِنْ ربِّ الأرضِ والسَّماءِ، وقيامًا بواجبِ أهلِ العِلْمِ في البيانِ وعدمِ الكِتْمان.

وفي ختام هذه الكلمة أقول:

إنَّه لا عجبَ أن تكونَ لهذا التَّعامُلِ الفَذِّ والمَسْلَكِ الرَّاشدِ، والنَّهْجِ القويمِ، والسَّبيلِ الحكيمِ، آثارُه العظيمةُ، في نفوس كلِّ مَنْ كان له شَرَفُ التَّعامُلِ معَ سماحتِهِ ﷺ طِيلَةَ مُدَّةِ رِئاستِه، تِلْكَ الآثارُ التي تدلُّ لها،

وتُبرهِنُ عليها، جمْهَرَةٌ من الأدلَّة، وجُمْلَةٌ من البراهين، لا يتَّسِعُ الوقت لإيرادها، فرأيتُ أنْ أكتفِيَ منها بما كتبه والدي ﷺ في رثاء سماحته ﷺ؛ لأنِّي أحسَبُ أنَّه يُصوِّرُ بوضوحٍ تامٍّ ما كان لسماحته ﷺ في نَفْسِ كاتبِ هذا الرِّثاءِ، وفي نفوسِ كافَّةِ مَنْ كانَ لهُ أدْنَى اتِّصالٍ بهِ أو تعامُلٍ معَهُ، مِنْ علماءِ المَسْجدِ الحَرامِ (أئمةً وخطباءَ ومدرِّسين)، **قال رحمه الله في هذا الرِّثاء:**

«عندما تُجدِب الأرض ويَضرِبُها المَحْلُ؛ نتيجةً لانقطاع الوابل الصَّيِّب عنها؛ يُصَوِّح النَّبتُ، وتَذْوِي الزُّروع، ويكون وراءَ ذلك الكسادُ وتدَهْوُر الوضع في المجتمع!

هذا مَثَلٌ نضربُه للعلماء في المجتمع؛ إذ هُمْ في الواقع كالوابل الصَّيِّب في: تتابُع هُطوله، وكثرة انصبابه؛ فإذا خلا المجتمعُ منهم، وأقفَرَتْ الأرضُ -من عَدَم تعاهدها بسَقْيِهم، وامتداد رِوائِها بغيثهم- ساد الجهلُ وامتدَّ رِواقُه، ومشى الناس في ظلام دامس، وتخبُّطٍ دون الوصول إلى المَهْيَع، ودون الحصول على ركيزةٍ يتَّخذونها رصيدًا للسَّعادة، وعُدَّة لقطع أشواط الحياة على هدى وبصيرة.

هذه المقدِّمةُ نكتبها لموت العلماء، والحِرْمان بسبب ذلك من ميراث العلماء، ثم اتِّخاذِ خَلَفٍ لا يرتقي إلى مِثْل ما ارتقى إليه العلماء الموهوبون والهادون بهداية الله إلى سبيل الله السَّويِّ، ومن ثَمَّ كان في موت العلماء خسارةٌ، وفي بُعدِهم نَكبةٌ لا تعدِلها نَكبةٌ، مِصداقُ ذلك الحديثُ النَّبويُّ الشَّريف الذي رواه الشيخان والترمذي مرفوعًا عن ابن عمر رضي الله عنهما: **«إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبضُ العلمَ بقبض العلماء، حتَّى إذا لم يُبقِ عالمًا، اتَّخذ النَّاسُ رؤوسًا جُهَّالاً؛ فسُئِلوا؛ فأفتَوا بغير علمٍ؛ فضلُّوا وأضلُّوا»**.

وأيُّ خسارةٍ أعظمُ من الضَّلال؟! وأيُّ مصيبةٍ أبلغُ من الجهلِ تقع في حساب المجتمع لا يجدُ لها عَزاءً؟!

ولعلَّنا -في الكثير من الأحيان- نجد هذا الحديث الشريف يُصوِّر الواقع المؤلم المَرِيرَ، وذلك حين يمشي السائل باحثاً عن مسألة مِنْ مسائل العلم؛ فلا يجد مَنْ يُظفِرُه بطَلِبَته، أو يُسعِفُه بحاجَتِه، بل قد يجِدُ العكسَ، يجِدُ مَنْ يفتيه بغير علمٍ ولا دراية؛ فيعملُ بفتواه، وهي لا تُوصِلُه إلى الله، بل تُبعِدُه عن الحقِّ الذي يتوخَّاه.

وإنَّه من النُّذُر التي تُطالِع كلَّ من يتلو كتابَ اللهِ: الإشارةُ إلى موت العلماء، حيث يقول ربُّ العزة: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ﴾ الرعد: ٤١.

جاء في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما -في رواية- : (**خرابُها بموتِ علمائها وفقهائها، وأهل الخير منها**) وكذلك قال مجاهد: (**هو موت العلماء**).

قال أحد الشعراء في هذا المعنى:

الأرضُ تحيا إذا ما عاش عالِمُها * متى يَمُتْ عالِمٌ منها يَمُتْ طَرَفُ**

كالأرض تحيا إذا ما الغيثُ حلَّ بها * وإن أبى عاد في أكنافها التَّلَفُ**

أجل! كيف يهنأ بالاستقرار مَن انتُقِص من أرضه، وبقي في وَجَلٍ من هذا الانتقاص الذي لا يقف عنده؟! فكلَّما طال الزَّمن؛ هوى من كان نورًا وبهاءً لها!

ومهما ظنَّ النَّاسُ أنَّهم أمِنوا من خَطَر الانتقاص؛ عادوا فرأوا إعادة الكرَّةِ: المرَّةَ بعد المرَّة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

بالأمس القريب: كان بيننا عالِمٌ مِنْ أبرز العلماء وأكثرهم اضطِلاعًا بمُهمَّة العالِم المُوجِّه الهادي بهداية الله، والدَّاعي إلى سبيل الله، **إنَّه سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد**، بكَتْه القلوبُ قبل العيون، وشَّيعه العارفون بقَدْرِه، المُقدِّرون لعلمه، الواقفون على مواهبه، الذين قضَوْا أمدًا في ظلال توجيهاتِه، سواءٌ ما كان منها في حِلَق الدُّروس التي يتصدَّرها، أو عبر موجات الأثير، أو في المواعظ العامَّة، أو الكتب ووسائل الإعلام.

ولقد كانت الخسارةُ بفقده عظيمة، وكانتْ لطلاب العلم صدمةً عنيفةً، بل للمجتمع أجمع؛ ذلك لأنَّ الفراغ الذي تركه كبيرٌ.

وعَزاءُ الجميع بفقده: الصَّبرُ؛ فالصَّبرُ عُدَّةٌ للمسلم في كل شِدَّة، وأجرٌ عظيمٌ أعَدَّه الله للصابرين، من حسن الجزاء، يُصوِّرُه قولُ ربِّ العِزَّة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ البقرة: ١٥٥ – ١٥٧.

لقد ضمَّتْني بسماحته ﷺ اجتماعاتٌ -وإن كانت محدودةً- إلا أنَّه من خلالها سَبَرْتُ غورَ سماحتِه، وقدَّرْتُ سَعةَ علمِه، وأكبَرْتُ فيه سماحةَ نفسِه، وعظيمَ تواضعِه وكريمَ خُلُقِه، وانتصاراتِه للحقِّ، وانتفاضاتِه نحوَ رَدْعِ الباطل بكلِّ ما يملِكُ. **وشخصيَّةٌ كهذه؛ من الواجبِ الاعترافُ بفضلها، والإشادةُ بالتوفيق الذي صادَفَتْهُ في كلِّ المحاولات الهادفة والمجالات الهادية.**

وإذا كان في النَّاس من لا يَذكُر ذلك في حياتِه؛ فإنَّ علينا -وقد التحق بربِّه ﷺ- ألا نترك مزيَّةً من مزاياه إلَّا أشعناها، فذلك حقٌّ واجبٌ في عُنُق كلِّ مَنْ عرَف سماحتَه وعاصره، وأفاد من عِلْمه، أو لَمَس كريمَ خُلُقِه، ونبيلَ مقاصِده.

رحم الله الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد وأكرمه بمنازل الصالحين وجبر مصاب الأمة جمعاء في مصابها بفقده: (إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعون)». انتهى كلامه ﷺ.